الحطية

قصص قصيرة

الحطية

حسين نصيب المالكي

دار البيـــان

للنشر والتوزيع والإعلان

الحطية

حسين نصيب المالكي

الطبعة الأولى: **1 / 2019** م

رقم الإيداع المحلي: **481/ 2018** دار الكتب الوطنية بنغازي

الغلاف

أمير المنفلوطي

- الرقم الدولي الموحد: ردمك **9-067-37-**
ISBN 978-9959

الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب بنغازي - ليبيا

- جميع حقوق الطبع والاقتباس والترجمة محفوظة للناشر:

دار البيان للنشر والتوزيع والإعلان

بنغـازي - ليبيا

هاتف 061.2232104 - محمول 091.2090770

المحتويات

المظروف الأصفر..... 7

الفتاة الضائعة..... 10

حكاية معلم اسمه صابر..... 12

جميلة..... 14

الراية..... 20

الرحلة 1103..... 22

مصنع الصابون..... 25

النوارس..... 28

عناد وقسوة..... 30

الأمل الضائع..... 32

الحطية..... 34

يوميـــات ســـائق تاكســـي..... 50

ولاح الأمل..... 64

قاص ولكن..... 66

امرأة من الحطية..... 68

موقف..... 72

البوابة..... 74
أين أنا..... 76
زوجي..... 79
الصحوة..... 82
خطوة غير محسوبة..... 84
عرق.. عرق..... 86
تجربة جديدة..... 88
ليلة سقوط وادي الدوم..... 91
أنا والذئب..... 96
نادر..... 98
يحكى أن..... 100
ملك الوز..... 103

المظروف الأصفر

أعرفه منذ سنوات.. تقلد العديد من المناصب.. كان مسئولا كبيرا في الدولة.

ابتهجت عندما أطل علي، وزارني في كوخي الصغير.. شعرت بالارتياح والوفاء، أنا منذ عدة سنوات أصبت بجلطة دماغية، جعلتني طريح الفراش، التفت إلي وسألني قائلا:

- منذ متى وأنت مريض شاعرنا العزيز؟
- أكثر من ثلاث سنوات.

كانت تبدو على وجهه البض سيماء الرفاهية والرخاء، ليس في رأسه شعرة بيضاء، واحدة، كتب شيئا ما في رسالة وطواها.. أغلق

عليها في مظروف أصفر.. ثم مد لي الظرف.. وغادرني وهو يدعو لي بالشفاء.

دعوت حفيدي أن يفتح لي المظروف، ويقرأ الرسالة التي بداخله، أنا أبي لم يدخلني كتابا ولا مدرسة قط..

اقترب مني حفيدي فتح المظروف.. فض الرسالة شرع يقرأها بصوت عال:

"السيد/الملحق الصحي بالقنصلية الليبية بالإسكندرية
تحية طيبة، وبعد..
أرجو منكم إجراء الفحوصات للشاعر الشعبي/ عميته فضيل، وعلاجه على الكلى في مستشفى المنصورة، إن أمكن على حساب الدولة الليبية فهو من طرفي.
وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ولكم التحية"..

طلبت من حفيدي أن يفتش المظروف جيدا، لعله يعثر فيه على صك، يساعدنا على السفر والعلاج لكنه لم يعثر فيه على شيء، همست لنفسي :

- المنصورة ممشى بعيد وشوك.

خطفت من حفيدي الظرف والرسالة ومزقتهما، ورددت:

ـ الانسان لا يموت إلا بيومه.

الفتاة الضائعة

لم تعد إليها ذاكرتها إلا منذ يوم فقط، وجدت نفسها ملقاة على سرير في مستشفى، وعلى البلاط حقيبة ملابسها، زوار المستشفى يحدقون فيها، في دهشة وذهول، يرثون لحالها، تبدو الرضوض على وجهها، خدها متورم، كأنها قد وقع لها حادث، ترتدي بدلة رياضية برتقالية اللون.

امرأة مسنة تزور قريبتها، كان سريرها بالقرب من الفتاة، نهضت إليها الفتاة وعانقتها، وهي تتساءل في حرقة:

- فيه رب يا عمتي يأخذ الحق..

في ذهول تبادرها العجوز:- نعم يا ابنيتي فيه رب يأخذ الحق.

- ينتقم منه اللّه اللي دار في هلك..

تذكرت كيف كانت تعيش مع زوجة أبيها القاسية، بعد أن فقدت أمها، زوجة أبيها لا تكف عن معاقبتها، وضربها بين الحين والآخر، بل تجعلها تفعل كل شيء في البيت من غسل الملابس، الي التنظيف للحمامات، الي الطهو الي غسل أواني الغداء أو العشاء، أصبحت الفتاة لا تطيقها وتود التخلص منها، حتى واتتها الفرصة المناسبة، وأطل عليها فتى الأحلام، علاقتها به كانت منذ عدة أشهر، وطلب منها أن تجهز حقيبة ملابسها، وتهرب معه إلي عش الزوجية، وطار بها نحو شاطئ البحر، وهناك قضى وطره منها، وأراد أن يتخلص منها، وهو يقود سيارته بسرعة جنونية على الطريق المعبد، وقع لهما حادث، نجيا منه بأعجوبة، وعندما شاهدها فاقدة الوعي، وجدها فرصة سانحة، للتخلص منها، أسرع بها نحو أقرب مستشفى، ورماها عند الباب هي وحقيبة ملابسها، وفي لمح البصر سرعان ما اختفى.

حكاية معلم اسمه صابر

أمضى سنوات عمره ما بين معلم ومفتش للغة العربية، حتى أحبها كثيرا، كان ينكب على قراءة قواميس اللغة، التي يشتريها من مكتبات بلاده، أو التي يرسل في طلبها من مكتبات مصر، يحرص على تصويب الأخطاء الشائعة، راسل مجمع اللغة العربية في بلاده، تحصل على عضويته بعد سنوات، وصل في حقل التدريس إلي درجة عالية، استدعاه مدير التعليم والتربية بمدينته، ذات صباح مرحبا به في مكتبه قائلا :

- نحن نشكرك على عطائك الطويل في حقل التدريس، وإخلاصك ومثابرتك.. واليوم نبلغك بوصولك سن التقاعد، وأحالتك على المعاش..

أظلمت الدنيا في وجهه، وشعر بالحزن والأسى، وغمغم بينه وبين نفسه:

- كيف أحال على المعاش بعد كل هذه السنوات الطويلة، وأتقاضى معاشا، مثل معاش المرأة المطلقة، وأسرتي قد تجاوزت السبعة أفراد، ولا أحد منهم يدخل درهما واحدا..

استلم رسالة إحالته للضمان، وعاد أدراجه إلي بيته في حزن وأسى.

جميلة

-1-

دقات عنيفة على باب الشقة، نهضت بتثاقل وبطء، عروسي لم تزل تغط في سباتها العميق:

- يا فتاح يا عليم من الذي يزعجنا في هذا الصباح ؟

فتحت الباب، فوجئت برجل طويل القامة، في متوسط عمره بادرني قائلا:- أنت معتوق عوض؟

أجبته :- نعم أنا هو.

- تفضل معي تحت.
- إلي أين ؟

ـ هيا معي إلي السيارة نحن من البحث الجنائي خمس دقائق.

ـ برهة أبدل ملابس النوم.

ـ تفضل لكن بسرعة.

دخلني الفزع، حاولت أن أتذكر إنني ارتكبت فعلا يغضب السلطات، لم أتذكر ارتديت ملابسي، وخرجت معه الي أسفل، كانا أثنين في سيارة مرسيدس شرطة، دفعني أحدهم من اليمين في السيارة، والآخر جلس في اليسار، وجلست بينهما، وأقلع بنا السائق فبادرتهم في ذعر:

ـ ماذا هناك ؟ والي أين؟

قال السائق :

- نحن لا نعلم شيئا، لكن الذي طلب إحضارك ومثولك بين يديه، وزير الداخلية شخصيا ..

حاولت أن أتذكر أي جرم خطير ارتكبته، لكن دون جدوى.

-2-

بعد أكثر من ثماني ساعات في الطريق، توقف سائق المرسيدس، أمام مبنى عتيق وسط العاصمة، ترجل ثلاثتهم وهم يمسكون بي، كأنهم يخشون أن أهرب منهم، أو كأنهم يقبضون على إرهابي خطير، أخذوني من دور إلي دور، ومن سرداب إلي سرداب، حتى أصبحنا في الدور الخامس، وأمام مكتب مدير الوزير، وقفوا الثلاثة عند الباب، استلمني منهم عميد في الشرطة، ووقع لهم على برقية القبض، وأمرهم بالانتظار، إنه مدير مكتب الوزير، أدخلني عليه أعطاه التحية قائلا:

- معتوق عوض سيدي..

كان الوزير يجلس على كرسيه الهزاز، يرتدي بدلة صيفية ذات لون كاكي،

أعطاه تعليمات بعدم دخول أحد علينا، أوصد الباب خلفه، أدى التحية وخرج، طلب مني الوزير الجلوس قائلا :

- أين أنت يا رجل؟ أرسلنا إليك أكثر من برقية للحضور..

أجبته :

- لم يصلني شيئا ولم أغادر المدينة.

ـ في الأخير طلبت منهم القبض عليك وإحضارك فورا .

أصبت بالدهشة والقلق والتساؤل :

ـ هل هناك أمر خطير بدر مني حتى يستدعي كل ذلك؟

الوزير يبدو كبير السن أصلع الرأس، وضع نظارته على عينيه، وفتح ملفا كان أمامه :

- زوجتك اسمها جميلة عبد العاطي إدريس..

أجبته في دهشة وتساؤل :

- نعم ماذا فعلت؟

ـ إنها لم تفعل شيئا، ولكن لديها أسرار الدولة والقيادة..

- ماذا ذنبي أنا ؟ وزوجتي أخبرتني إنها لم تعد على علاقة بأي عمل ثوري، وأكدت لي أنها تركت كل ذلك من مدة..

- لا زوجتك ماتزال على علاقة بالعمل الثوري، أنا استدعيتك بناء تعليمات القيادة في البلاد، وعليك أن تحضرها إلي العاصمة وتعملان معا هنا.

- لكن أنا لا أستطيع فعل ذلك، أبي وأمي كبيران في السن وأنا أبنهما الوحيد..
- ان لم توافق على احضارها والعمل في العاصمة، وفي مبنى القيادة، عليك أن تطلقها فورا، حتى لا تعرض نفسك للسجن مدى الحياة.

أصبحت في حيرة من أمري، هل الطلاق عندهم بهذه البساطة، خاصة وإنني تزوجتها منذ بضعة أسابيع فقط، وسط دوامة من التهديد والوعيد..

أصبحت في مأزق..

لست ادري كيف الخروج من هذه الورطة؟

عندما عدت، صارحت أبي وأمي بالأمر، تركا لي حرية التصرف، لم أجد بدا من طلاقها، خاصة وإنها أخفت عني، علاقتها بالنظام والعمل الثوري.

ولكن لم تمض بضعة أشهر على طلاقها، حتى سمعت عن اقترانها بمسئول كبير في الدولة، عندها أحسست بالظلم والغبن، وأصبت بصدمة قاسية، وطعنة نجلاء في قلبي، على أثرها دخلت

المستشفى مريضا، وبعد أشهر شفاني الله، وعدت إلي ممارسة عملي وحياتي الطبيعية، وحاولت نسيانها إلي الأبد..

الراية

أقف في حديقة الفندق الفخم، وبين يدي خرطوم المياه، أسقي الورود والزهور.. هذه حرفتي.

فجأة أطل علي رئيس البلاد من الباب الزجاجي للفندق، ببدلته البحرية الناصعة البياض، التي تزينها الأوسمة والأنواط، وخلفه شداد غلاظ، تجمدت أطرافي، هتف بي: - أنت.. أنت..

رميت بالخرطوم على الأعشاب، تسمرت مكاني وفرائصي ترتعد، ساقي لا تكادان تحملاني :

- نعم سيدي..

كان يرفع بصره إلي أعلى، حيث كانت الراية على السارية ساكنة

- أصعد الي أعلى السارية بسرعة، وحرر تلك الراية من العمود حتى ترفرف..
- حاضر سيدي.

سرعان ما قفزت أصعد العمود كالقرد، حتى وصلت الراية وحررتها من الحبل، أصبحت ترفرف خفاقة عالية، ثم تدحرجت هابطا في لمح البصر.

الرحلة 1103

وصات ليلة الحادي والعشرين من ديسمبر سنة 1992م، إلي بنغازي متأخرا، كان الجو ممطرا والبرد قارسا، وصلت شقة صديقي بوشعالة قال لي:

- لقد حجزت لك على أول رحلة إلي طرابلس غدا.

تناولت عنده العشاء في ساعة متأخرة من الليل، وتجاذبنا أطراف الحديث، عن ذكرياتنا الجميلة معا بمدينة طبرق، وعند الفجر أحضر لي بطانية جديدة، وتدثرت بها ونمت، لكنني صحوت متأخرا، قلت له :

- لماذا لم توقظني مبكرا؟ لقد تأخرت عن موعد الطيارة ولدي موعد العاشرة في طرابلس..

جاءني بكوب الشاي بالحليب الساخن والخبز والجبن قائلا:- الخطوط الجوية ليس لها مواعيد هيا سوف نلحق بها..

أقلني بسيارته، بعد نصف ساعة كنا في مطار بنينة، هرولنا نحو الموظف الذي يقوم بحجز التذاكر، مددت له بالتذكرة حدق فيها قال لي :

- للأسف لقد اقلعت الطائرة منذ قليل وأنت تأخرت..

ورجع لي التذكرة، غضبت لهذا التأخير، وألقيت اللوم على صديقي، وعاتبته لأنه لم يوقظني مبكرا، ثم جلسنا إلي طاولة، وأخذنا نحتسي المكياطة، وفجأة خيم على من في المقهى الصمت، والكل حدق في التلفاز الذي أمامه في دهشة وذهول، وعلى الشاشة أطل مذيع أنيق قائلا :- الآن جاءنا ما يلي: لقد سقطت طائرة الخطوط الليبية البوينج الرحلة 1103،على منطقة سيدي السائح، ولم ينج أحد من ركابها وطاقمها، في ذمة اللّه.

التفت الي صديقي بوشعالة وعانقته، فابتسم وردد :

- ألم أقل لك أن كل تأخيره فيها خيرة.. الحمد للّه على سلامتك..

عدت معه من جديد للشقة، وقررت عدم السفر، والعودة إلي مدينتي طبرق..

مصنع الصابون

خمس ساعات متواصلة، حتى وصلت بنغازي بسيارتي التايوتا الفجعة، أخذت ابحث عن محلات الجملة للصابون، رأسي يكاد أن يتصدع، والظهيرة اقتربت، رن هاتفي كان صاحب هذا الرقم العمدة فرج

فتحت النقال:

- السلام عليكم
- وعليكم السلام عمده فرج
- أنت أين الآن؟
- أنا في بنغازي
- فيه اجتماع اليوم في مصنع الصابون أحضره بالنيابة عني؟

- حاضر..

ورددت بيني وبين نفسي :

- وربما أجد فيه الصابون الذي جئت من أجله لمحلي هناك.

سألت عن مقر مصنع الصابون، وصفوه لي حتى اهتديت اليه، اقتربت منه، زحام شديد على الباب الرئيسي، ناس من مختلف الأعمار يرتدون البدل ورباط العنق، وآخرون يرتدون الزي الليبي، يدخلون من الباب الرئيسي، دخلت فوجئت بطاولات جهزت عليها وجبة الغداء، كل طاولة عليها أربعة أشخاص، جلست على طاولة عليها ثلاثة وأنا رابعهم، أمامنا ما لذ وطاب، أرز بالخلطة، ولحم وطني، وشربة وسلاطة وخبز وعصائر مختلفة..

بعد تناول الغداء وشرب الشاي الأخضر في مصنع الصابون، صعد المنصة رجل مسن يرتدي بدلة رصاصية، ورباط عنق وأفتتح الاجتماع قائلا: في البداية أرحب بكم جميعا في البداية وأشكركم على تلبية دعوة الحضور هذه ولإقرار الفدرالية في البلاد.....و.....و.....

لم أفهم من حديثه شيئا أنا البدوي، ماهي الفدرالية هل هي رجل أم امرأة ؟ حكومة أم سلطة؟

بعد أن فتح المجال للنقاش، نهضت من على الكرسي قائلا:- لست معكم في هذه الفدرالية التي تتشدقون بها، وإن كنت لا أعرف عنها شيئا، إلا أنني أعرف أن ليبيا لن تكون إلا دولة واحدة.

حدقوا في بأعين رصاصية وفي دهشة واستغراب، إلا أنني نهضت،

وغادرت القاعة، متجها نحو سيارتي الجاثمة هناك عند الباب..

النوارس

أوقف سيارتي أمام فيلا فخمة، أطفأت محركها، لفت انتباهي في الساحة المقابلة، رجل في متوسط عمره، يقف ومعه كيس الحبوب، والنوارس البيضاء من حوله، وهو يبذر لها الحب على الأرض، وهي تلتهمه، وهي تصدر أصواتا وترفرف بأجنحتها مبتهجة، وكأنها تعرفه منذ زمن بعيد،

دفعني الفضول اقتربت منه وحييته متسائلا:

- من أين تأتي هذه النوارس؟

أجابني:

- إنها قد فرت من شط الصابري، فزعا من الحرب ودوي الرصاص، كل ضحى تهبط إلي هنا، أكون أنا في انتظارها بالحبوب..

وبعد أشهر مررت من هناك بسيارتي، لم أجد النوارس في تلك الساحة، ولم أجد الرجل كذلك، فقد انتهت الحرب، وعادت النوارس من جديد الي شاطئ الصابري..

عناد وقسوة

لم يستمر زواجي منها طويلا، عنيدة قاسية صلبة الرأس، لم تتوقف خلافتنا حتى كان الطلاق بيننا، أثمر زواجي منها طفل وحيد، قامت هي على رعايته وتربيته، تزوجت أنا من امرأة ثانية طيبة القلب، مطيعة طاهية ممتازة،

أنجبت لي عددا من الأطفال.

فوجئت بزيارة امرأتي المطلقة، وتبلغني بمرض ابننا، وإصابته بمرض نقص المناعة المكتسبة، وأخذ الابن يتردد علينا ويلعب مع إخوته، اتصلت بها وحذرتها، طالبا منها عدم ارساله إلينا مرة أخرى، حتى لا يصاب أخوته بالعدوى.

غير أنها أطلت علي ذات يوم، طالبة مني الذهاب معها للمحكمة، لتوقيع توكيل لها لعلاجه، ذهبت معها للمحكمة، ووقعت لها التوكيل أمام القاضي، ومن يومها لم أعد أرها..

وبعد أشهر علمت من أحد الأقارب، أن مطلقتي تحصلت من الدولة، على تعويض مالي ضخم فاق المليون دينار، لعلاج ابننا والصرف عليه، كنت في حاجة إلي جزء من هذا المبلغ، أرسلت لها شيخ القبيلة، عندما قابلها وحكى معها، قالت له في تحد :- ولا درهم واحد يفرح به مني.

الأمل الضائع

قبل المغيب بقليل كنت أجلس على صخرة مقابل البحر، بزرقة مياهه وعلو أمواجه، أرنو الي طيور النورس وهي تصوصو وترفرف بأجنحتها على البحر..

أعود بذاكرتي إلي العام الماضي، وكيف أمضيته في القرية السياحية، في كتابة رواية بعنوان: الأمل الضائع، وأقطن في جناح صغير بالقرية، يحتوي على غرفة وصالة ومطبخ وحمام صغير، كنت أصحو كل يوم في الصباح، وبعد الافطار انخرط في الكتابة حتى الظهيرة، ثم أطالع الجرائد والمجلات، وأقرأ فصولا من كتاب..

لم أكن أخرج من جناحي الا لوجبة الغداء أو العشاء، أو عندما تزورني زوجتي، بعد كل شهر ونقضي معا يوماً أو يومين، ثم تودعني عائدة الي منزلنا والي مدينتنا هناك.

وأتذكر إنه في آخر زيارة لها، احتفلنا بخاتمة الرواية، وسلمت لها الحقيبة التي تحوي مسودات الرواية وجهاز اللابتوب، حتى تعود بهما الي البيت لأنني مسافر غدا الي تونس، لحضور ندوة عن الرواية العربية هناك.

وأتذكر بعد عودتي إلي منزلي قابلتني زوجتي، وهي تبدو مضطربة مرتبكة، عرفت كل ذلك من ملامحها بادرتها:- ماذا هناك؟

أجابت في تردد وتلعثم :- أود أن أخبرك خبرا سيئا للغاية وأنا آسفة.

تساءلت مأخوذا :- ما هو يا عزيزتي ؟

قالت :- حقيبتك بما فيها قد ضاعت مني.

أصبت بالحزن والقلق، مجهود سنة كاملة يضيع سدى هكذا.

ألمح طائر النورس يغطس كالسهم، ويلتقط سمكة في منقاره، غير إنه ما إن ارتفع بها قليلا، حتى سقطت منه في البحر، وهكذا يعاود من جديد الطيران والبحث عن سمكة أخرى.

بصيص من الأمل يلوح لي، إذاً علي ألا أقنط وأبدأ من جديد.

الحطيـة

أنت في حلم أم خيال أم ماذا ؟ هل يعقل أن تكون قدماك قد وطئت باريس، هذه المدينة العريقة الشفافة، التي تخلبك بسحرها وجمالها بمجرد وصولك إليها.. وأنت مجرد شاب بائس فقير، كنت تقطن في حي يكتظ بأكواخ الصفيح المتلاصقة، والأزقة الملتوية الضيقة، والنوافذ الصغيرة الواطية، ومسارب المجاري، والقطط الغافية، والكلاب التي لا تكف عن النباح في الليل، والفراغ والسأم، ومشايخ الحي الذين يلعبون الشيزة عند مسجدها الوحيد، من العصر وحتى آذان المغرب، وفتياته اللواتي تكتظ بهن البيوت..

وتتذكر طفولتك، وكيف كنت تقطع سبخة الحطية، مشيا على قدميك في الصيف نهارا، لصيد العصافير بالفخ والنشابة ثم بندقية الرش، في وادي بوحبلة، ومقبرة جدارية، وكيف كنت تطارد

اليرابيع، وكيف كنت تقترب من البحر، وتقوم بتخويض مياه عيون البردي، حتى تفقد أسماك البوري الأكسجين، فتطفو فوق سطح المياه السوداء، فيسهل عليك اصطيادها، وحملها في كيس إلي أمك، حيث تعد لكم وجبة عشاء دسمة، من سمك بوري بالأرز، وكيف كنت تقوم بجمع النحاس وأواني الألمنيوم القديمة، وبيعها للمرغني في وسط المدينة، بعدها تتجه لدخول سينما حلمي، وشراء سندويتش التن بالهريسة، ومشروب صداقة من سي علي العمامي، وتستمتع بمشاهدة فيلم الأبطال العشرة.. وتتذكر صديقك الذي كنت تتجول معه، في شوارع المدينة الوادعة الصغيرة، ويسمعك قصائده في حبيبته نزيهة..

الحطية هذا الحي المنسي مهد الطفولة والصبا، على أديمه حبوت، لم أكن في نيتي الرحيل عنه :- لكن مجبر أخاك لا بطل..

وتتذكر ليلة سفرك التي سهرت فيها مع أمك الطيبة، وكيف أدخلت على قلبها الطمأنينة، بأنك لن تغيب طويلا في بلاد النصارى، أمك التي ودعتك في الصباح وعيناها تغرورقان بالدموع، وهي تشد على يديك وتدعو لك.

وتتذكر كيف دفنت نفسك على كرسي، في وسط الحافلة المتجهة صوب الغرب، وهي تسابق الرياح على قطران الطريق،

وبعد أن قطعت مئات الكيلوات، توقف سائقها عند أول بوابة صادفته، فتح أبواب الحافلة، يصعد العسكري إلي داخلها، يحدق في الوجوه الجالسة، وانت وجل ثم يلتفت إليك متسائلا:

- أوراقك يا شاب..

تمد إليه بطاقة تعريفك يتأملها قائلا:

- أنت طالب ؟

أجبته :- نعم..

رجعها إليك ثم ترجل من الحافلة، أوصد السائق أبوابها، واصلت الحافلة سيرها من جديد نحو الغرب.. وسط لغط ركابها، رحلة استغرقت أكثر من اثنتي عشرة ساعة، وعند كل بوابة، كانت تتوقف الحافلة لدقائق..

ومع صباح اليوم التالي كنت تدفن نفسك، في الحافلة القاصدة تونس، لترتقي في اليوم الثالث سلالم الطائرة القاصدة باريس، وتهبط في مطار أورلي، بعد اجراءات التفتيش، وختم الدخول، كنت تحمل حقيبتك، تسرع نحو أول سائق تاكسي، تصادفه يتوقف عند الرصيف، كان قد تجاوز العقد الخامس من عمره، أصلع الرأس،

أنيق الهندام دفعت اليه بالحقيبة وضعها على الكرسي الخلفي التاكسي، آخر ديسمبر، الجو قارس البرودة، ورثاث الثلج يتساقط على زجاج التاكسي كالقطن، كنت تعتقد انه فرنسي حتى بادرك بالعربية قائلا:

- خوي عربي..

- نعم من ليبيا..

- من وين في ليبيا أنا أعرفها.. من طرابلس؟ من بنغازي؟.. من زوارة؟..

- لا.. من طبرق..

هتف قائلا:

- عرب طبرق باهيين برشة، أنا عملت هناك في السبعينيات، مع صياد زواري على قارب صيد، كنا نصطاد البوري والحمرايه وبوشوكه والفروج والشلبة من شواطئ طبرق..

ثم تساءل :

- من أين في طبرق ؟

- من الحطية..

- نعرفها الحطية وسوق العجاج وباب درنة والجبيله الحمرا انا واللي كنت نشتغل معاه كنا نسكنوا في جبيلة النور..

يشغل مساحات التاكسي لإزالة الثلج عن الزجاج، ثم بادرني قائلا :

- انت جاي هنا للدراسة..
- لا للبحث عن عمل..

في دهشة وذهول:

- ليبي امسيب النفط وراه، وجاي يدور شغل هنا في باريس.

بعد برهة التفت الي قائلا :- هل لديك عنوان ؟ مرسل الي أحد..

أجبته :

- لا
- سوف آخذك لواحد تونسي عنده مصنع ورق.. لعله يجد لك عملا..

البرد قارس ورذاذ الثلج يتساقط، السائق ينعطف بي من شارع الي آخر، بعد دقائق توقف بي أمام مبنى قديم، طلب مني الترجل، حملت حقيبتي جرجرت قدمي خلفه، دخل بي علي رجل مسن يرتدي نظارة سميكة، كان يجلس على مكتبه، رحب بنا جلسنا أخبره السائق بحاجتي للعمل، حدق في الرجل مليا، ثم طلب مني جواز سفري، أخرجته له بادرني قائلا:- الذي جاء بك الي هنا صديق عزيز، وأنا سوف أضعك تحت التجربة لمدة ثلاثة أشهر..

نهض السائق وقدم لي رقم هاتفه نقدته أجرته وزيادة، وعدني إنه سوف يقوم بزيارتي في الأيام القادمة..

كانت الات المصنع ساكنه لا أحد يعمل، فالساعة تقارب السابعة مساء، كأن العمل قد انتهى منذ قليل، مشى بي المدير نحو غرفة صغيرة تقابل مكتبه قائلا لي :- هذه الحجرة سوف تقيم فيها.. وأشار لي الحمام هناك..

كانت الغرفة بها سرير خشبي ودولاب وكرسي وطاولة وبعض البطاطين البالية ارتميت على السرير..

صحوت صباح اليوم التالي، وسط البرد القارس، جهزت لنفسي كوبا من الشاي، تناهى الي سمعي وصول بعض العمال، خرجت

اليهم سلمت عليهم شغلوا الات المصنع كانوا جزائريين أقبل المدير بعد لحظات وضعني أمام ماكينة تخرج الكراسات، وأمرني بوضعها داخل الكراتين..

ومضت الأيام على هذا المنوال رتيبة مملة، لم أكن أخرج إلا إلي السوق المجاور، لجلب الخبز والجبن والبيض والتن والماء، ثم أعود الي حجرتي الصغيرة، وأدثر نفسي بالبطانية وأخلد للنوم، حتى صباح اليوم التالي للعمل في المصنع، وسط ضجيج الآلات وأحاديث العمال الجزائريين، كنت أحاول أن اتأقلم مع الحياة وسط الغربة، سئمت الوحدة من أيامي الأولى.

-2-

وذات صباح سبت كان المصنع يخيم عليه الصمت والسكون، أطلت علي فتاة شقراء جميلة، شعرها الذهبي مصفوف بعناية كسنابل القمح، عيناها واسعتان كحبتي زيتون، انفها طويل شامخ بادرتني: - بونجور

أجبتها:

- بونجور

سألتني :

- أبي موجود؟

أجبتها :-

ـ اليوم سبت ونادرا ما يأتي.. تفضلي..

دخلت على استحياء مبتسمة، كانت تحملق في الغرفة المرتبة المنسقة، جلست على الكرسي الخشبي :

- أنا أراك هنا لأول مرة.
- نعم أنا العامل الجديد..
- وأنا ياسمين ابنة مدير المصنع ونسكن قريبا هنا..

جهزت لها كوبا من المشروب..

رشفت منه رشفة ثم قالت :

- حليب
- لا.. لبن..

بادرتني قائلة :

- ما اسمك ؟

- اسمي فتحي..

- هل تجولت في الحي اللاتيني مسيو فتحي..

-لا للأسف لم أبرح غرفتي، الا للسوبر ماركت القريب من هنا، لشراء احتياجاتي والعودة.

قالت وهي ترشف كوب اللبن :- ما رأيك ان نأخذ جولة في الحي اللاتيني خاصة أن اليوم أجازه..

هززت رأسي لها بالموافقة، وارتديت معطفي، أوصدت باب الغرفة، وخرجت معها، كانت رائحة عطرها نفاذة، سبحان الله هذه قد هبطت علي من السماء، لتنتشلني من وحدتي وغربتي.

كان الجو دافئا لا ثلج ولا مطر، اقتربنا من مبنى كبير هتفت قائلة:- هذه كاتدرائية نوتر دام..

بعدها اقتربنا من حديقة جميلة قالت :

- هذه الحديقة كان من عادة فناني فرنسا، إقامة معارضهم الفنية فيها في الهواء الطلق، لكن اليوم لا أحد فيها..

تركنا الحديقة، وسرنا في أزقة نظيفة ثم عبرنا الي شارع، تصطف على جانبيه مقاه ومطاعم عديدة بادرتني:

- هذه مقاهي متخصصة هذا مقهى للكتاب والأدباء، وهذا مقهى للفنانين، وهذا مقهى للرسامين وهكذا.

بعد ان تعبنا من السير قررنا الجلوس قليلا في إحدى المقاهي العادية، لاحظت العديد من التوانسة والجزائرية والمغاربة والاسيوية، يعملون هنا في هذه المقاهي.

طلبنا كوبين من العصير، اقترحت هي علي أن يكون على حسابها، التفت الي متسائلة:

- أود أن أتعرف عليك أكثر...

- انا من ليبيا ومن مدينة طبرق التي يحتضنها البحر، ولدت في حي اسمه الحطية، في وسط المدينة، من أبوين ليبيين فقيرين، لا يعرفان القراءة والكتابة، في كوخ صغير، الأب يصحو من الفجر، يتوضأ يؤدي الصلاة، يغدو إلي عمله في الميناء، والأم ترعى شؤون اخوتي الثلاثة الصغار، عندما وصلت سن الدراسة، دخلت مدرسة الحطية، تحصلت منها على الابتدائية والاعدادية، عشت

صباي في الحطية، عرفت مسالكه وأزقته وصادقت جميع صبيانه، وحفظت اسماء فتياته..

وعشت طفولة بائسة وشقية..

ثم نهضنا لنواصل جولتنا حتى وصلنا الي ميدان صغير قالت لي :

- هذا أصغر ميدان في باريس ميدان الأربعة شجيرات به متحف الفنان ديلا كروا..

كان المتحف موصدا، واصلنا سيرنا حتى اقتربنا من محطة الميترو، بادرتني قائلة:

- هذا الميدان يسمى ميدان الانتظار..

قضيت معها يوما من أجمل أيام حياتي، في نزهة داخل الحي اللاتيني.

بعد ذلك عدنا حيث ودعتني عند باب المصنع عائدة الي منزلها على أن نلتقي يوم السبت القادم..

يمر الأسبوع بطيئا حتى يأتي اليوم المنتظر للقاء ياسمين..

البارحة حلمت حلما مفزعا، عساكر مدججون بالسلاح، يطاردونني في سبخة الحطية، للإمساك بي وأنا أجري أمامهم ألهث، وما إن دخلت أول زقاق، حتى دفعت باب كوخنا أوصدته خلفي من الداخل، ودخلت غرفتي، وارتميت على سريري، ودفنت نفسي في البطانية، وأنا أسمع دوي أقدامهم الثقيلة وهم يفتشون عني..

أطلت علي فتاتي اليوم بفستانها الوردي الجميل، ورائحة عطرها الباريسي، ومعها باقة ورد حمراء أهدتها إلي، حيتني بتحية الصباح، انطلقنا عبر شوارع الحي اللاتيني، كان الجو كعادته قارسا لم يزل، اقتربنا من صرح علمي وحضاري هتفت بي :- هذه هي جامعة السربون العملاقة..

- نعم يا لها من رائعة هل نستطيع زيارتها؟..

بادرتني :

- اليوم إجازة وفي مرة لاحقة سوف نأخذ من إدارة الجامعة موافقة ونزورها..

شردت عنها بذهني بعيدا، كانت أمنيتي مواصلة دراستي الجامعية، ودخول كلية الطب، كنت متفوقا في دراستي الثانوية، بالرغم من فقري المدقع، بذلت جهدا كبيرا، حتى ظهرت، النتيجة

وتحصلت على تقدير جيد جدا، كتبت في الاستبيان والتسجيل في الجامعة رغبتي الأولى كلية الطب البشري ظهرت نتيجة القبول، بعد أيام صدمت فلم يكن اسمي من ضمن المقبولين، في كلية الطب، وجدت اسمي في قائمة الموجهين للكلية العسكرية، أمقتها حياة العسكر، ولا أرغب في دخولها اطلاقا، بادرني المسجل العام :

- هذا قدرك ولا يمكن لنا تغييرك إلي أي كلية أخرى..
- أي قدر أحمق هذا؟
- من قال لكم انني أهوى العسكر؟
- لا نستطيع أن نفعل لك شيئا هذا توجيه من رئاسة الاركان..
- لن أدخلها حتى ولو قطعتموني اربا اربا....

التفت إلي ياسمين قائلة :

- لماذا سرحت بعيدا عني؟

انتبهت لنفسي بسرعة، بادرتني:

- السربون هذه أكبر جامعة في فرنسا..

جلست وإياها في أحد المقاهي، هذه المرة كان العصير على حسابي، قالت لي:

- غدا احتفال بعيد ميلادي في شقتنا ويسعدني أن تحضره..

- نعم سوف أحضره..

سرت انا وفتاتي نحو محطة سان ميشيل ومشينا في شارع حديقة اللوكسمبرج

الحي اللاتيني شراييه تأخذك بدهشة الطرق مرصوفة هناك العديد من المقاهي والتي يمنع فيها التدخين مع الباريسيين منذ أن تحط قدميك على شوارعهم تحس بالألفة لديهم بشاشة.. يبادلونك بالتحية.. يبتسمون في وجهك برقة.. نساؤهم شقراوات رشيقات يحببن التدخين..

حضرت حفلة عيد ميلادها، توطدت علاقتي بأسرتها أكثر.. لم نلبث بضعة أشهر، معا حتى طلبتها من أبويها، واحتفلنا بزفافنا، وعشنا معا سعداء أنجبت لي طفلة جميلة شقراء، وعندما سقط النظام في بلادي، بانتفاضة فبراير2011م، عدت بها الي مدينتي، بعد أشهر من تلك الانتفاضة، وإلى حي الحطية، كما كانت غبطة أهلي بعودتي وسعادتهم، وبفتاتي وطفلتنا الجميلة، الحطية كما تركتها لم يتغير فيها شيئا، سوى رحيل الكثير من سكانها

الأصليين القدامى عنها، إلي الأحياء الأخرى، وحلول وجوه غريبة فيها وسكان جدد، وأزين الطريق الرئيسي لها بعمارات ومحلات غطت عليها، وانتشرت على السبخة البيوت الحديثة، أخذت أمي مع مرور الأيام تعلمها كيف ترتدي الرداء، وكيف ترمي الخبز في التنور، وتأخذها معها للمناسبات الاجتماعية، غير إنها بعد عدة أشهر تبدل حالها، ولم تعد تلك الشقراء المبتسمة، دخلت مرحلة الحزن والكآبة، أصبحت كئيبة منعزلة حتى فاتحتها ذات يوم ما الذي أصابها ؟

أجابت:

-أريد العودة إلي أبي وأمي في باريس، لم أعد أستطيع البقاء هنا..

- لماذا حبيبتي؟ أغضبك أحد.

- هكذا أشعر انني لا استطيع البقاء.

- هل أمي أغضبتك؟

- لا.. أمك انسانة طيبة.

- اخواتي

- اخواتك حتى هن طيبات مثل أمك لكنني لم أعد قادرة على البقاء هنا..

وبعد أيام ازداد اصرارها على العودة إلي أهلها، وساءت حالتها الصحية، حملتها إلى مطار بنينة هي وطفلتنا، ومن هناك ودعتهما إلى القاهرة، ومنها إلى باريس وعيناها تغرورقان بالدموع..

بعد حياة ملؤها البهجة والسعادة تركتني ورحلت، وأنا مثل ورقة في قلب الإعصار، كان رحيلها هي وطفلتي قاسيا علي، وذنبا لا يغتفر، تركت في قلبي غصة، كيف يمكن تصديق هذا الأمر الفظيع والفراق المؤلم المفاجئ.. الذي لم يكن في الحسبان في يوم ما؟!..

يوميات سائق تاكسي

-1-

امتصت شبابي العسكرية، تجاوزت العقد السادس من عمري، أشتغل سائق تاكسي، بسيارتي الصغيرة الهونداي، في ظل أزمة السيولة وصعوبة الحياة، بالأمس لم أتحصل إلا على أربعة دنانير، اشتريت بها أرغفة الخبز لأبنائي الذي لا يدخلون علي درهما واحدا.

واليوم خميس أنا على الطريق الرئيسي، الوقت قبل المغيب بقليل، توقف على يمين الطريق، شاب يلوح لي هدأت من سرعة التاكسي، فتح الباب قفز الي جواري شاب عشريني، شعره منكوش عيناه متورمتان، هتف بي :- ارجع الي حي...

عدت به الي ذلك الحي، وقطعنا مسافة على الشارع الذي ينصفه، طلب مني الوقوف أمام محل كبير، عليه ازدحام وسيارات

عديدة، دخله وبقي فيه لدقائق، ثم خرج وبيده اكياس بها مشتريات وبادرني:- إلي فندق م.....

وصلنا الفندق الذي يحتضنه البحر، ترجل بأكياسه ومضى للداخل، ابتعدت بسيارتي قليلا عن الباب، وظللت أنتظره، وبعد برهة خرج وركب قائلا لي :- عد بي الي ذلك المحل السابق في الحي...

لم تمض دقائق حتى كنت أتوقف مرة ثانية أمام المحل المزدحم، ترجل وعاد إلي بمجموعة أكياس أخرى بين يديه:

- هذه المرة إلي فندق س....وسط المدينة.

ظللت انتظره هناك لأكثر من عشرة دقائق، أطل علي وقد نقصت الأكياس التي كانت معه..

ثم قال لي :

- فيه عمارة في وسط المدينة شارع فلسطين، أريدك أن تتوقف عندها.

توقفت أمامها وظللت أنتظره، والمؤذن يؤذن لصلاة العشاء، بعد دقائق أطل وقد خلت يديه من الأكياس، بادرني قائلا:- عد بي إلي الحي الذي أخذتني منه، فعملي اليوم قد انتهى..

تساءلت مأخوذا :

- ماذا تشتغل يا بني؟

أجابني:

ـ كما ترى يا حاج في النهار نوم، وبعد العصر أصحو، عندي زبائن في هذه المدينة، ممن يحتاجون للترفيه عن أنفسهم، اشتري لهم زجاجات الخمر والحشيش من محلات التبغ، وأبيعها لهم بمكسب، وهكذا وكل ليلة أعود إلي المنزل وفي جيبي ما لا يقل عن ثلاثمائة دينار.. طلب مني التوقف قائلا :-هنا قد وصلت..

أخرج من جيبه ورقة بخمسين دينار، ومدها لي رفضت أخذها في البداية، غير إنه رماها على كرسي السيارة، وترجل مسرعا بعد أن أوصد الباب خلفه ومضى..

-2-

بالأمس بعت بطاقة الفيزا المصرفية، وسيارتي الهونداي البيضاء، واشتريت سيارة انترا جديدة.. وضعت في أعلاها قطعة خرطوم أصفر، علامة التاكسي عندنا في هذه المدينة انتظرت دوري في مطار طبرق المدني، حتى تهبط الطائرة لأتحصل على زبون، وبعد قليل هبطت الطائرة، وترجل منها الركاب.. بعد دقائق أقبلت نحوي فتاة جميلة، تتهادى في مشيتها، على عينيها نظارة سوداء وبيدها حقيبة صغيرة.، وتجرجر بيدها الأخرى حقيبة كبيرة سوداء، أسرعت نحوها استلمت منها الحقيبة الثقيلة، ووضعتها في مؤخرة السيارة، فتحت لها الباب، ارتمت على الكرسي الخلفي، وقد غمر عطرها الفواح التاكسي، ووصل إلي أنفي، التفت إليها متسائلا قبل أن أنطلق بها :- الي أين ؟

بادرتني :

- مزرعة فلان الفلاني.....

قلت لها :أجل..

أطفأت شريط التسجيل، ودست على بنزين التاكسي، وخرجت من باب المطار في اتجاه المدينة، بعد أن قطعت مسافة دفعني الفضول التفت اليها سألتها :

- هل أنت زوجته؟

- لا عشيقته.. من طرابلس..

- أول مرة تزورين طبرق ؟

- لا زرتها عدة مرات، عندما يطلبني عشيقي أحضر اليه، وأبقى في ضيافته لمدة يوم أو يومين، وأستلم منه أجري ألف أو ألفين دينار، ثم أعود إلي مدينتي طرابلس..

كانت الفتاة صريحة معي في حديثها للغاية، أوصلتها للمزرعة التي تريدها ونقدتني أجري..

-3-

من الصباح الباكر أتوقف بالتاكسي، أمام فندق المسيرة الفخم، نحن في بداية عام 2011م، مرتبي له أكثر من شهر لم يصل للمصرف، وأخيرا لاح الفرج، فقد أطل علي ثلاثة زبائن من باب

الفندق، يرتدون البذل، تبدو الأناقة والوجاهة عليهم، اقتربوا مني قالوا لي :

- نريد المطار.

سرعان ما استلمت حقائبهم، أودعتها شنطة السيارة، دلف أحدهم الي جانبي، والآخران في الخلف، أخذوا يتحدثون، يبدو من لهجتهم أنهم من غرب البلاد، أقلعت بهم من أمام فندق المسيرة، في اتجاه الشرق حتى المثلث عند المقبرة الفرنسية، انعطفت نحو الجنوب الشرقي، كانوا يتحدثون عن رحلة القذافي إلي ايطاليا الأخيرة، وأردت أن أدخل معهم في الحديث، حتى قلت للذي بجواري في سذاجة :

- وأيش اخبار أعميرين؟

ولم أصحو الا وصفعة قوية على وجهي، بيد الذي يجلس إلي جواري، ولكزني الذي خلفي وبادرني الثالث :

- واكل من عصيدته يا حيوان؟

والثاني تساءل قائلا :

- قمت معاه بالتورة يادبسيس.

وردد الثالث :

- قول القائد يا حيوان يا أثول يا خرقة.

بادرني الذي في الخلف :

- لولا أنك فقير وراقد ريح، لأودعناك في السجن الآن حتى تتأدب مرة أخرى .

توقفت أمام باب المطار، وفرائصي ترتعد، وجبيني يتفصد عرقا، خيم علي الصمت، مد لي أحدهم بورقة من فئة العشرة دنانير :

- خسارة فيك هدي.

فتحت لهم الشنطة الخلفية للتاكسي، وما أن استلموا حقائبهم ودخلوا صالة الركاب، حتى تنفست الصعداء

-4-

أدرت مفتح التاكسي الهونداي، وانتظرت برهة حتى يرتفع مؤشر الحرارة قليلا، من أمام كوخي في الحطية، ثم دست على البنزين مرددا:- توكلت على اللّه.

آخر شهر مارس كان الجو عجاج والريح مرتفعة، محملة بالغبار، والرؤية ضعيفة علي الطريق الساحلي، استوقفتني امرأة كانت بضعة خطوات من الرصيف، في منتصف عمرها، فتحت هي الباب، دفنت نفسها في الكرسي الخلفي، وقد غمرني عطرها الأخاذ، نظرت اليها في المرآة، كانت تغطي وجهها المساحيق متسائلا :

- أين تريدين ؟

أجابت :

- سوق المدينة.

وسط المدينة توقفت بها.. قلت لها :

- اثنين دينار.

أخرجت ورقة حمراء من فئة العشرين دينارا من صدرها البض قائلة:

- ما عندي غير هذي غداء العويله.

في غضب قلت لها :

- تربحي.

-5-

بينما كنت عائدا بالتاكسي إلي البيت، اعترضني رجل في متوسط عمره، كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ليلا، قلت له متسائلا:

- إلي أين؟

التفت إلي قائلا :

- أقرب محل مستلزمات للأمومة والطفولة..

قلت ربما لديه طفل يحتاج الي حليب، في هذه الساعة المتأخرة من الليل، أخذت ألوذ به شوارع المدينة، كانت المحلات جميعها مقفلة.

في ضيق وقلق بادرني :

- عد بي إلي البيت في حي....

من شارع لآخر حتى وصلنا منزله، ترجل الرجل مسرعا ودخل منزله، وقال لي :

- دقيقة سوف أحضر لك أجرك.

أخذت أنتظر، تناهى إلي مسامعي أصوات مرتفعة، خرج إلي ومعه امرأته، ترتدي توته بيضاء، تمسك بتلابيبه، وهو يبادرها :

- واللّه المحلات كلها مغلقة حتى هذا السائق كان معي .

قلت لها بالفعل :

- المحلات كانت مقفلة كلها.. لكن ماذا كنتِ تريدين؟.

ببساطة :

- أريد مكياج فقط.

طلبت منه أجرتي، وابتسمت ودست على البنزين، وعدت الي منزلي.

-6-

الليلة بعد العشاء قالت لي الزوجة:

- العيال بكرة لا يوجد لدينا حليب لهم ..

دست على بنزين التاكسي، دخلت شوارع المدينة، كانت يأكلك فيها الذئب، الساعة الثانية عشرة ليلا، عند مفترق جزيرة مساعد،

ثمة رجل يعترضني، ومعه شخص آخر، توقفت بالقرب منهما، أدخله في الكرسي الخلفي، كانت رائحة الخمر قد وصلت أنفي، وبيده زجاجة خمر، ثم ركب الآخر بجانبي وقال:

- الصناعية من فضلك..

زميله السكران أخذ يدعوني للشرب :

- تشرب.. تشرب.

دفعه هو طالبا منه الصمت، اقتربنا من الصناعية كانت مظلمة وموحشة، عند إحدى الورش طلب مني التوقف، ومد لي السكران بعشرة جنيهات بادرته :

- ليس لدي صرف..

دفعني زميله أن آخذها كاملة :

- خذها كلها..

وترجلا، ومن يومها لم أعد أخرج للعمل بالتاكسي ليلا.

-7-

في هذا الصباح دخلت المدينة والزحام على أشده، توقفت عند الجوازات أشار لي مواطن بادرته :

- أين تريد؟

أجاب:- باب الزيتون.

قلت له :

- خمسة دنانير الأجرة..

وافق الرجل واندلف الي جواري.

عند محطة وقود بو حبله، اعترضنا شاب يشير بيده، التفتُّ إلى الزبون الذي بجواري :

- ما رأيك أن نحمله معنا؟.

هز رأسه بالموافقة، توقفت بالقرب منه، فتح الباب الخلفي وركب، دست على بنزين التاكسي، تحرك بنا قال الراكب الذي الي جواري :

- في رأي اللي يقدر يسير أمور البلاد في هذه الفترة هو المشير حفتر...

عارضه الذي خلفي قائلا :

- أخطأت يا أخي أن من يستطيع أن يكون رئيساً للبلاد، هو سيف الاسلام معمر القذافي، صاحب مشروع ليبيا الغد.

قال الأول :- لا حفتر أفضل ورجل عسكري..

رد الثاني :- لا سيف الاسلام أفضل..

اشتد بينهما الحوار، في عناد واصرار، وعلا الصوت بينهما، وقد أصبح أشبه بعراك كل واحد منهما، أراد أن يمد يده للآخر، أوقفت التاكسي على يمين الطريق أمام مسجد علي بو العور، مخاطبا كل واحد منهما:- ترجلا من التاكسي هنا وتشاجرا هنا.. أو دعونا من السياسة..

بادرني الذي الي جواري وهو يتحرك

:- لا أنزلني هنا أنا وصلت.

ثم مد لي خمسة دنانير وهو يترجل..

ثم اوصلت السير بالزبون الاخر حتى معسكر 28 مارس، وقد أوقفت النقاش معه..

ولاح الأمل

عدت إلي مدينتي من الغربة بعد ما سمى بالربيع العربي، مع الأيام وجدت أن شركتي السابقة، التي كنت موظفا فيها، قد تلاشت من على الخارطة، بقيت دون عمل، ودون الحصول على مستحقاتي، تذكرت كيف جندوني عنوة من العمل، وألبسوني بزة خضراء في المعسكر، يومها كنت لم أزل في العقد الثاني من عمري قالوا لي :- إنها مجرد خمسة وأربعين يوما تقضيها في الجندية، ثم تعود الي حياتك المدنية ووظيفتك السابقة.

لكنهم رموا بي في وسط رمال تشاد الملتهبة، أمضيت سنوات شاقة هناك، ويعد فترة قالوا لنا القوات التشادية الصديقة، سوف تساعدكم، لكن فوجئنا انها انقلبت علينا، وأطاحت بنا، وتم أسرنا والزج بنا في إحدى سجون انجامينا،، تنكر لنا من أرسلنا الي هذا

الجحيم، فوجئنا بنجاح الرئيس ادريس دبي وسقوط حسين حبري، لم نخرج من هناك الي بلادنا، بل طلبنا اللجوء السياسي الي امريكا، عملت في محطة وقود بولاية فلوريدا، من أجل قوتي اليومي، لسنوات عديدة ثم عدت الي ليبيا، ولكن لا شيء وجدته أمامي، الشركة اختفت، حقوقي ضاعت، ولا وظيفة لي ولا زواج، تجاوزت العقد الرابع من عمري، عندما سمعت بانطلاق عملية الكرامة، لاح لي فجأة بصيص من الأمل..

انطلقت مسرعا نحو معسكر الرجمة..

قاص ولكن

قرأت له العديد من القصص الرائعة.. بعد سنوات توقف عن الكتابة، التقيت به في مقهى المدينة، كان يخلد الي الصمت، طلبت له كوبا من القهوة، قلت له بإعجاب:

- لقد قرأت لك قصصا جميلة مثل: إجهاشة الذاكرة، والفأل السيء، وعيون سعدية.
- أنا ودعت الكتابة منذ سنوات..
- لماذا توقفت عن كتابة القصة؟
- لذلك قصة طويلة..
- هل لك أن تخبرني بها لقد شوقتني..
- كتبت قصة بعنوان (منشورات ضد السلطة) وعندما نشرت في الصحف والمجلات، فوجئت بالأمن الداخلي يقبض علي، ويودعني في السجن، بحجة إنني

أكتب ضد النظام، بل لم يكتفوا بي عند هذا الحد، بل صنفوني إلي أنني أنتمي للحزب الشيوعي، وحولوني لسجن الحصان الأسود، وهناك وضعوني في زنزانة منفردة، وكل يوم ينهالون على جسدي بالسياط، ويصرخون في وجهي:- أعترف من معك في الحزب الشيوعي.. ولا يدعوني حتى أفقد الوعي، ذقت صنوفا من القهر والتعذيب، انتقلت من سجن لآخر، ولم أخرج من السجن إلا مع ما سمي بأصبح الصبح..

ومن يومها طلقت الكتابة والقصة القصيرة.

امرأة من الحطية

ـ الساعة توا كم؟

سؤال دائما ترددده، في الصباح أوفي الظهيرة أو في المساء، وهي ليس وراءها ما يشغلها، ولا عمل في غاية الأهمية تريد أن تقوم به، امرأة غريبة الأطوار، لا تقرأ ولا تكتب، ولدت في زمن لا يدخل فيه الآباء بناتهم المدارس، وخاصة هي فقد عاشت يتيمة، فقدت أمها وهي طفلة تحبو، كفلها جدها.

هي امرأة ذات ذهن صافي متوقد، صفحة ناصعة البياض، تجاوزت العقد الخامس من عمرها، فوق الجلباب ترتدي الفراشية البيضاء، في زياراتها المتكررة، عند أقاربها لا تمكث سوى يوم أو يومين، أما عندنا وخاصة زوجتي فقد تربت معها، تمكث عندها بالأسابيع..

حكت لي قصتها ذات يوم قائلة:

- فقدت أمي وأنا طفلة وكذلك أبي، ترعرعت في كنف جدتي، جدي لم يدخلني المدرسة، عشت في الحطية في منتصف الستينات، حيث كنا نعرف بعضنا البعض، والطيبة والمودة تغمرنا، عشت سعيدة مع صاحباتي، ألعب معهن، أدخل بيوتهن وأتغدى عندهن، تزوجت صغيرة من جندي كان يكبرني بعشر سنوات، أنجبت منه العديد من الأطفال ذكورا وبنات، تنقلت معه للجنوب سبها، وللغرب مزدة وترهونة، كنت أعاني الغربة والوحدة، تغمرني السعادة عندما نقوم بزيارة الأقارب في طبرق، أبكي بالدموع عندما يسافر بي الي الغرب، حتى استقربنا الأمر أخيرا في المرج، في كوخ ثم منزل شعبي.

كانت تلك المرأة زياراتها تتكرر لأهلها، لكنها كانت تفضل البقاء عندنا لأطول مدة، عاشت طفولتها وصباها مع زوجتي، كأنها أختها في منزل واحد، تلك المرأة كانت تحفظ كل ما يحث أمامها، في أي بيت تزوره، تسرد الأحداث التي تقع أمامها بالتفصيل، لا تغيب عنها شاردة ولا واردة،

وهي تجهل أن للبيوت أسرارها، تحفظ غناوة العلم والشتاوي، تحب حضور المناسبات والأعراس..

بعد أن طالت غيبتها عن أسرتها، أقبل زوجها الستيني، الطويل القامة، يسأل عنها، حتى وصل إلينا، وبعد العشاء وشرب الشاي حدثني عنها قائلا :

- هي قصتها غريبة انا لم أتشاجر معها، لكن بعد وفاة شقيقها في سيارته في حادث منذ عشر سنوات لم نعد ننام في فراش واحد، كنت أستيقظ في الصباح، وبعد تناول افطاري، أقصد عملي في الضمان، أعود عند الظهيرة لتناول الغداء، أسأل عنها بناتها :

- وين أمكم؟

تبادرني إحداهن :

- عند جيراننا عندهم أسبوع.

بعد صلاة العصر أخرج للعب الشيزة، مع من هم في سني بجوار المسجد،

وأعود بعد صلاة المغرب أسأل عنها كالمعتاد تقول لي إحدى بناتي:

- عند جيرانا عندهم عرس لبنتهم..

وتأتي مع الليل، لا تفوتها مناسبة في الحي، فهي لا تحب البقاء في البيت على الأطلاق..

عندنا في المنزل كانت تصحو قبل السابعة، تدب في الردهة والممرات كالسلحفاة، وعندما تصادفني تحيني بتحية الصباح و تبادرني :

- الساعة كم توا.

موقف

كنت ضابطا يومها في الجيش، خرجت مع الرئيس في نزهة، وثالثنا رئيس حرسه إلي وادي يقع شرق جنوب طبرق بمسافة...

الرئيس قبل أن يقوم بانقلابه، ويستلم زمام الأمور في البلاد، كان آمرا لسريتي، يثق في كثيرا، يعجب دائما بجرأتي وشجاعتي، تعرف حتى على أطفالي، عندما يزور هذه المدينة، يستدعيني بالاسم لمرافقته، والوحيد الذي أدخل عليه في مكتبه بمسدسي، بعد تناول وجبة العشاء والشواء، وشرب الشاي الأخضر في تلك الوادي، اتكأ رئيس الحرس للخلف، هو برتبة كبيرة وضع يده على بطنه، وابتسم في سخرية والتفت الي قائلا :

- الآن لم يعد أمامنا سوى أن يقوم هذا الضابط بغسل أواني العشاء.

قفزت من مكاني غاضبا، سحبت مسدسي هجمت عليه، أصابه الذعر والارتباك، لولا ان نهض الرئيس، ومسك يدي وأخذ مني المسدس، قائلا :

- ماذا تفعل يا مجنون ؟ انه يمزح معك.

وفي غضب قلت له :

- لا يا سيدي هذه إهانة وانا لست امرأة ولا أقبلها..

البوابة

انتقلت من كتيبتي حديثا، للحراسة الليلية على بوابة الجرفان بالقرب من مساعد، كان معي جنديان صغيرا السن، طلبا مني الراحة في البيت لأنني أكبرهم سنا، وأمضيت زهرة عمري في العسكرية، وذات ليلة أخذ الجنديان إجازة طارئة، مسكت وحدي تلك الليلة على البوابة ببندقية الكلاشن، أقبلت شاحنة كبيرة بالجرار محملة بالبضائع، ما أن أخذت تقترب من البوابة، حتى هدأ السائق من السرعة، نهضت ببندقيتي اقترب مني السائق، ورمى لي بظرف اختطفته، وتركته يعبر نحو الشرق، تفحصت الظرف به رزمة من الأوراق النقدية من فئة العشرة، عددتها كانت الفا من الدنانير، وراتبي في الشهر لا يتجاوز نصف هذه الرزمة، بعد ساعة أطلت شاحنة أخرى متوسطة الحجم محملة بالبضائع، وقبل أن يعبر

السائق، رمى لي هو الآخر بظرف، كانت فيه مائتي دينار.. وعند مساء اليوم التالي، أقبل رفيقاي قال لي أحدهما:

ـ خلاص تريح أنت على حسابك حتى شهر في الحوش عادي ونحن نوقع عليك. قلت لهما :

- أنا حضرت خطبة الجمعة أمس خطيب الجمعة شدد على أهمية العمل وأن الذي لا يعمل يأكل زقوما، وانا من هذه الليلة لن أفارقكما في الحراسة الليلية على هذه البوابة....

أين أنا؟

-1-

يسير في شوارع المدينة، يطارده الصبية الصغار يرشقونه بالحجارة، يتضايق كثيرا منهم، بيده جالون، يرتدي شورتا قصيرا، وفنايلة باهتة، شعره أسود ومجعد يربطه بشريط من الخلف، هو أسمر البشرة، أهمل نفسه في لامبالاة يمشي، لا يعرف يومه من غده، كان الصبية يطاردونه ويصرخون فيه: :- المجنون.. أهو المجنون اهو..

في احد شوارع المدينة، كلما لمح امرأة، وبيدها طفل يقترب منها، يخطفه منها ويقبله، وهي فزعة مذعورة يرجعه اليها ويمضي في سبيله..

بعد المغيب يعود أدراجه الي حجرته الإسمنتية الضيقة المهملة، يرمي جالونه، لا يدرك ما هو فيه من وضعه المزرى وحالة اللامبالاة التي تخيم عليه يجد قطعة خبز يابسة وطماطم وفلفل اخضر وطرف من الجبن يلتهم كل ذلك يشعل كانونا وسط الغرفة التي على ارضيتها فرشة باهتة عندما ينطفئ يلتحف بالبطانية البالية، وينام حتى الصباح، هكذا هي أيامه ولياليه.

-2-

لم يصح الا بعد بضعة أيام تأمل ما حوله حجرة نظيفة وينام على سرير ووسادة بيضاء تحت رأسه وليس على الأرض ويرتدي توتة رياضية لونها أحمر نظيفة وفتاة تقف عند رجليه تساءل قائلا:- اين انا ؟

قالت له الممرضة:- انت في عيادة الدكتور طارق النفسية في بنغازي..

- وأين زوجتي وأمي ؟؟
- هناك في طبرق..
- من الذي جاء بي الي هنا ؟

- جاء بك شباب نادي طبرق.

عادت اليه ذاكرته المثقوبة وتذكر كيف كان لاعبا في فريق المدينة الرياضي يحمل الغلالة الحمراء هدافا يعجب المدرب والجمهور تزوج من فتاة يحبها بعد أكثر من سنة أنجبت له طفلا جميلا كان يحبه جدا وعندما ترتفع حرارته ويمرض يجري به نحو أقرب عيادة في مدينته وذات ضحى كان يلاعبه في فضاء شقته يحمله بين يديه يريه الشارع وفجأة سقط الطفل من بين يديه على الشارع وغرق في دمه فأصاب صاحبنا ما أصابه ومن يومها لم يعد يدري شيئا عن الحياة لا أمه ولا زوجته كل منهما تركه لحالته التي أصبحت يرثى لها....

ابتسم للحياة من جديد تحسس رأسه الحليق وجسمه النظيف ثم غرق في سبات عميق.

زوجي

تزوجته ليس عن حب، بل لأنه قريب لي، لم تمض سنوات حتى أصبح لدينا العديد من الأطفال، لكنه لا يحمل مؤهلا أو يعمل في وظيفة، ومما زاد الطين بلة انه كان يشرب ويحشش..

وذات يوم أصيب بصداع عنيف في رأسه، وأصبح يهلوس ويهذي، فحملناه الي شيخ قيل لنا انه روحاني، وصف له وصفة طبية من العسل، وقال لنا انه به مس وسوف أفك عنه، وأخذ زوجي يتردد عليه، عدة مرات حتى شفاه اللّه، ولاحظت في كوخنا الصغير، انه شرع يقرأ القرآن وخاصة سورة البقرة، وقصار السور وتوقف عن شرب الخمر وتعاطي الحشيش فقلت الحمد للّه.

ولكن الفاقة والفقر المدقع ظل كل ذلك يحيط بنا، ذات يوم ارتدى سروالا عربيا وسورية طويلة بيضاء قلت له :

- اذهب وابحث لك عن عمل..

أجابني :

- وجدته العمل من اليوم سوف اصبح فقيها.
- أطبب النساء
- نعم والرجال بالقرآن والرقية..
- كيف وانت تدخن وتشرب ؟
- سوف اتركه مؤقتا لكن عليك ان تكوني معي وتقبضين انت من النساء النقود..

ومنذ ذلك اليوم أصبح يعرف بالشيخ تتردد عليه نساء وفتيات صغار، ورجال وشباب، ويقرأ على الجميع القرآن ويخبرهم بالسحر والمس، ويصف لهن العلاج بالعسل وزيت الزيتون، وحالة تصدف معه وتشفى وعشرة لا، واقبض انا من كل امرأة مائة دينار في البداية ثم بعد الاقبال عليه زدت السعر الي مائتين واحيانا ثلاث مئات دينار، تحسنت حالتنا المادية، وأصبحت لدينا سيارة، والباب يطرق باستمرار، والأموال تتوفر لدينا، حتى ذات يوم فاجأني قائلا:- أريد أن أتطوع هناك لأقاتل في الجبهة ضد الارهابيين....

قلت له بخوف :

- انت لست بعسكري ورجل مريض ووضعنا المادي نحو الأفضل..

لكنه عنيد ورأسه من حجر، أصر على رأيه بالتطوع للجبهة، وغادرني في اليوم التالي وعيناي تغرورقان بالدموع..

وبعد بضعة أيام أبلغوني بالخبر المؤلم، إنه عاد من الجبهة محمولا في سيارة اسعاف، مصابا أصابه خطيرة للمركز الطبي بالمدينة، قد ينجو منها وقد يلفظ أنفاسه الأخيرة..

الصحوة

وجدت نفسي عندما صحوت طريح الفراش، في مستشفى الجلاء، الجبس يغطي ساقي، وفي وجهي كدمات وجروح، ذاكرتي بدأت تعود الي.. قالت لي الممرضة:

- لقد جاءوا بك الي هنا بعد أن وقع لك حادث..

تذكرت كيف كنت مجرد عسكري صعلوك، عندما نقلوني الي حضيرة الاستطلاع..

كنا نجازف بحياتنا في بحر الرمال نطارد المهربين وتجار المخدرات، غير اننا بدأنا نضعف أمامهم، ونقبل رشاواهم وندعهم يعبرون، لم تمضِ بضعة اشهر حتى كنت قد أزلت الكوخ القديم، وبنيت عمارة مكانه، ثم صارت لي سيارة فخمة أمتطيها، ورصيد ضخم في احد البنوك..

وودعت العسكرية الي غير رجعة.

وذات يوم وقع لي حادث مروع، ضاعت فيه تلك السيارة الفخمة، وتكسرت عظام جسمي وأخيرا فطنت لنفسي ولعنت المال الحرام.

خطوة غير محسوبة

أصبت بمرض معدي نتيجة العمل، ولم ينصفني رئيسي في العمل، وأصابت العدوى حتى طفلتي، لم أترك وزيرا في الدولة والا طرقت باب مكتبه بالساعات الطوال، لكن دون جدوى، قالوا لي :- ليس لك الا رئيس الدولة لن يحل مشكلتك الا هو..

سألت عن قصره، اجابني قريب له :- إن الرئيس له ثلاثة عشر قصرا.. ولكن القصر الوحيد الذي يتردد عليه في رأس حسن..

حملت طفلتي وملفاتي وذهبت الي هناك كان قصرا فخما يحيط به سور مرتفع وباب حديدي ضخم أسود اللون بقيت هناك على بعد مسافة، وبعد ساعات مرق من أمامي رتل كبير من السيارات الفخمة الفارهة فتحت أبواب القصر وفجأة توقفت إحدى

سيارات التي في المؤخرة وعليها مدفع م/ط الحرس وترجل منها رجل ضخم الجثة يحمل بندقية كلاشن توجه نحوي وهو يصيح:

- انزل بروك يا حيوان ويديك فوق رأسك..

وطفلتاي مذعورتان تصرخان في ذهول، ضربني بأخمس البندقية على كتفي وصاح:

- ما الذي جاء بك إلي هنا ومن أعلمك بوصول الرئيس من افريقيا.. أنت عميل جاسوس..

وفي الحال أقبل رجل آخر يرتدي بدلة كاكي اللون أخضر باهت وصفع رئيس الحرس على وجهه ووقف له في استعداد كانه مدير مكتب الرئيس ثم التفت الي قائلا:

- انهض واحمل ملفاتك وطفلتيك أنا لا أريد أن أعرف من أنت وماهي مشكلتك لكنني أحيي فيك جرأتك وشجاعتك حتى وصلت الي هنا..

عرق.. عرق

في إحدى زياراتي للإسكندرية، دعاني صديق إلي مقهى الحديقة الدولية، الذي كان يكتظ بالزبائن، عثرنا على طاولة شاغرة، جلسنا سرعان ما جاءنا النادل، أنا طلبت عصير ليمون وصاحبي طلب قهوة، لفت انتباهي، في الطاولة المقابلة لنا، ثلة من كبار السن، يتجادلون بصوت عال، يكادون أن ينشب بينهم العراك، تصدرهم رجل أنيق ببذلته وبطنه تتدلى امامه كالمرأة الحامل في شهرها التاسع وهم يصرخون فيه :- هذا عرقنا.. عرقنا..

التفت الي صديقي متسائلا:

- لماذا هم يصيحون في هذا الرجل هكذا؟

أجابني :

- هؤلاء جماعة من المقاولين تقدموا بعطاء رسى العطاء على صاحب الكرش.. انتظر قليلا وشاهد كيف يتعامل معهم..

خيم علينا الصمت أخذت أشاهد ما يحدث، بعد لحظات وقف صاحب الكرش وأشار الي شاب كانت بيده حقيبة سوداء أخرج منها رزم من الجنيهات المصرية، مد لكل واحد منه رزمتين، توقف الجدال والنقاش الحاد، احتسوا القهوة وكل واحد منهم وضع ما استلمه في جيبه، وغادر كل واحد المقهى وكأنه لم يحدث شيئا..

تجربة جديدة

من أقصى الغرب ابتلعتني هذه المدينة الكبير وسط البلاد، لا أعرف فيها أحداً ولا يعرفني أحد، سكنت بزوجتي واطفالي الثلاثة في شقة صغيرة، امرأتي حامل في شهرها التاسع، حملتها من يومين الي المستشفى في تاكسي، بادرتني طبيبة النساء بعد فحصها :

- هذه مازالت على الوضع.

كتبت لها بعض الحبوب، اشتريتها لها من الصيدلية، وعدت بها للشقة صباح اليوم التالي، ازدادت حالتها سوءا، أردت حملها للمستشفى، وأنا في حيرة لا أدري ما أفعل؟ والأطفال يتشبثون بنا، وهي تئن وتتألم، تمددت على السرير لم تقوى على الوقوف، رفعت

ساقيها إلي أعلى، أخذت تتنفس بصعوبة ضغطت على بطنها، وهي تتفصد عرقا، ما أن برز رأس المولود، حتى سحبته ببطء، بينما أطلقت المولودة صرخة قوية، بعد خروجها للحياة.، لففتها في منفشة جديدة، وتركتها جنبها وقفزت للشارع، لعلي أجد تاكسي لحملها للمستشفى..

لمحت امرأة مسنة تحبو، اقتربت منها همست لها :

- يا حاجة زوجتي أنجبت وأنا لا أعرف ماذا أفعل لها؟

صعدت معي العجوز للشقة، وما أن طلت على غرفة زوجتي، المتمددة على السرير حتى هتفت :

- باسم اللّه ما شاء اللّه..

طلبت مني العجوز على الفور، إحضار ماء دافئ وموس حلاقة جديد ومنشف، قطعت العجوز الحبل السري، وضغطت على بطن زوجتي عدة مرات، أخرجت المشيمة نظفتها، لفت المولودة بمنشفة، ثم التفتت الي قائلة:

ـ مبروك طفلتك.. والحمد للّه على سلامة زوجتك..

مددت يدي في جيبي، وأخرجت ورقة من فئة العشرين دينار، وأعطيتها لها، ترددت في البداية في أخذها، قائلة:

- أنا أصلا قابلة سخرني اللّه في طريقك.

ليلة سقوط وادي الدوم

بعد أن ضللت الطريق الوصول إلي البئر، وسط عاصفة رملية هوجاء، عثرت علي ناقلة بي أم بي معطوبة، التجأت إليها واختبأت فيها، حتى لا ينكشف أمري، أمام جنود العدو المنشغلين بجمع الغنائم، ثمة بندقية كلاشنكوف بداخل الناقلة، وبضعة مخازن ذخيرة وبرميل مياه عذبة، أسكنت ظمأي منه..

اقترب أحد جنود العدو من الناقلة، عندما فتح الباب فوجئ بي ارتد مذعورا اسرع للخلف وأخبر مجموعته، الذين اقبلوا بعد قليل شاهدته من خلال فتحة في جسم الناقلة، يلتقط قاذف آر بي جي، ويتقدمهم نحوي لنسف الناقلة أسرعت على الفور بالخروج من الناقلة ورفع الراية البيضاء، قبضوا علي، فتشوني بدقة، ووثقوا يدي خلفي، ثم فتشوا الناقلة، أخذوا البندقية والذخيرة وبرميل

الماء، ودفعوا بي فسيارة اللاندكروزر في عنف وقسوة وأقلعت بي السيارة والجندي التشادي يصيح بي:

- أنت جندي ليبي أليس كذلك؟

أجبته: - لا.. شعبي (أي مدني)..

شقت بنا السيارة، وسط العشرات من المدرعات المعطوبة، وجثث لجنود ليبيين متناثرة، وأنا مقيد اليدين، مشاهد مأساوية كنت أشاهدها وأنا في السيارة.. مشاهد مؤلمة تجعلني أتجرع مرارة الهزيمة والخذلان..

توقفت بي السيارة أمام خيمة في الخلاء، كان يجلس خارجها اسرى ليبيين صاح في جندي تشادي بلون الليل:

- امرق هيا..

قفزت من السيارة، حدقت في الوجوه المتعبة، وهي ترتدي بزاتها العسكرية الخضراء، لم أتعرف على أحد منهم، ارتميت على الرمال، مثل بقية الأسرى، أيدي الجنود التشاديين تمتد إلى جيوبنا، تسلب ما فيها من نقود وأوراق، حتى الأحذية والساعات سلبوها منا.

قضينا تلك الليلة الحالكة السواد تحت رحمتهم، كانوا يصوبون بنادقهم نحونا، لم يستطع أحد منا التحرك، من حلول الظلام حتى طلوع الفجر.. عطش وجوع والمعنويات منهارة، خوف ورعب ومصير مجهول،

وفي دهشة التفت اليَّ أحد السجناء قائلا: - الأفندي صالح..

صحت فيه بغضب : - اخرس هذا ليس وقته..

جلست على الرمال مثلهم، شردت بذهني، تذكرت ليلة الأمس المشؤمة، وكيف هاجمتنا القوات التشادية، وفتحت نيرانها علينا في وادي الدوم، وكيف دب الفزع والذعر بين جنودنا، وكيف وقع السائقون بسياراتهم وسط حقول الألغام، وكيف تواصل هروب قواتنا نحو أوجنقا، وكيف توالت سقوط قذائف التشاديين على مقر قيادتنا، وكيف أجبر الأفراد على الانسحاب، كما تصاعد اللهب في الخيام والبيوت المحترقة، وفي مخازن الذخيرة والوقود، وكيف سقط معظم المدافعين من جنودنا قتلى، وكيف قررنا الهرب في اتجاه الصحراء، وكيف اشتعلت النيران في مقرات القيادة والمنامات، عندها استولت القوات التشادية على أطنان التموين، وأعداد هائلة من سيارات 26 طن، ومخازن الذخيرة، والمهمات العسكرية والطائرات الحربية.

وكيف ضاع البعض منا وسط الصحراء، وابتلعه الموت.

وكيف استطعت أن أنفذ بجلدي، وأنقذ نفسي، وأختبئ في تلك الناقلة حتى قبضوا علي.

وبعد ليلة طويلة حالكة السواد، نقلونا العساكر التشاديين الملثمين، في الشاحنات تحت الحراسة المشددة، وسط جو مفعم بالغبار ودخان الحرائق، وطلقات الرصاص وأصوات الانفجارات.

ثم كانت لنا وقفة في قرية بعد المغيب، حيث تجمهر علينا سكانها أطفال ورجال ونساء، وبأيديهم مصابيح يسلطونها على وجوهنا، وهم يقهقهون، والسباب والشتائم تنهال علينا منهم، ومنهم من حاول الاعتداء علينا، لولا الحرس التشاديين..

أركبونا الشاحنات من جديد التي اتجهت بنا صوب فادا، وفي نفس الليلة جاءوا لنا بعشاء في عنبر كبير، ثم نقلونا الي قاعدة فرنسية، حتى نقلتنا طائرة عسكرية الي مطار العاصمة انجمينا، ثم اركبونا حافلة عليها حراسات مشددة كانت في انتظارنا، أقلتنا الي سجن القيادة وسط العاصمة انجامينا لأصبح مجرد رقم في ملفات المسجونين.

تمضي الأيام والأسابيع والأشهر وذات صباح صحوت على طرق عنيف على باب الزنزانة وصوت يصيح بنا :

- هيا اخرجوا.. اخرجوا فقد وقع انقلاب على الرئيس التشادي هبري بزعامة إدريس دبي..

أنا والذئب

بعد دخولي كلية الزراعة، شغفت بالنباتات وزراعتها، عندما لاحظ الدكتور مدى عشقي واهتمامي بها.

قال لي:

- ماد مت أنت من البطنان، لماذا لا تدرسين نباتات البطنان وأنواعها، وفصيلة كل نبات واسمه؟...

وجدتها فكرة صائبة، خاصة بعد حصولي على بكالوريوس الزراعة، استعنت بصديق في التصوير، وتجولنا في سقايف وأودية البطنان، شرقها وغربها وجنوبها، كنت أصور واجمع عينات من كل النباتات، وأدرسها عند الدكاترة في كلية الزراعة، حتى توصلت الي إصدار كتاب عن النباتات في البطنان، كان الكتاب عن نباتات البطنان المعروف منها وغير المعروف يدرس حاليا في الجامعة،

عثرت على نبات في وادي السهل لكن لم يعرف اسمه، فقررت زيارته مرة ثانية، أخذت سيارتي اتجهت بها غربا، قبل أن أصل بوابة الشرطة العسكرية بقليل، أوقفتها على يمين الطريق المعبد، ترجلت منها الي وادي السهل، ومعي زجاجة مياه صغيرة، هي مخاطرة وجرأة مني كفتاة، مشيت على قدمي لمسافة أكثر من ثلاثة كيلووات داخل الوادي الموحش المهجور، لا أحد يمشي فيه سواي،

تنادى الي مسامعي عواء ذئب، هل أتوقف ام أرجع من حيث أتيت؟ لكن بإصرار واصلت سيرى دخلت ممرا ترابي مليء بالأشواك، لم تطأه قدم من قبل..

كلما اقتربت من النبات، يزداد ويرتفع عواء الذئب، شاهدته ينزوي هناك في طرف الوادي، رمادي اللون، وعيناه تقدحان بالشرر يعوي لعله يقول:

- ما الذي جاء بهذه الفتاة الي؟ لاشك انها تنوي بي شرا..

ما إن اقتربت منه، حتى قذفته بالحجارة، سقطت على بعد خطوات منه، التفت الي وولى هاربا بعد مسافة، عثرت على نباتي وقد كبر وترعرع قطفت منه فروعا وعدت...

نادر

نادر اسم على مسمى، شاب في ربيع شبابه، أنيق الهندام، طويل القامة مثل نخلة سامقة، نظيف البشرة محبوب بين أقرانه، مدلل من أبويه بين أخواته الست، استقبلني ذات يوم، عند باب منزلهم في أعلى تلك الربوة، حيث الأشجار والخضرة الدائمة، رحب بي كان الوقت يومها ظهرا قائلاً:

– هيا تفضل عمي أبي في درنة، أطفئ السيارة سوف نذهب للمسجد لصلاة الجمعة ثم نتغدى معا حتى يأتي.

ذات يوم أرسله والده الصحفي، المهموم بمهنة المتاعب، في مهمة لاستلام صحيفة البلدية الأسبوعية من المطبعة، في سيارة أجرة والعودة بها.

في الطريق وأثناء العودة بالصحيفة، حكى نادر للسائق الشاب ابن مدينته، عن أحلامه وطموحاته العريضة، في مواصلة دراسته الجامعية، والاقتران بالفتاة التي أحبها وأحبته مع مطلع الصيف القادم، الأب قلق في انتظار عودة ولده الوحيد، الذي تأخر كثيرا، وفبراير قارس وغائم، زاد السائق من سرعة سيارته، وصل مؤشر السرعة إلى المائتين، وفي لمح البصر سمع دوياً هائلاً، انفجرت إحدى إطارات السيارة، داس السائق فجأة على كوابحها، تدحرجت بهما السيارة عدة مرات، خارج الطريق الرئيسي، قذفت بنادر بضعة أمتار من الطريق، نزفت دماؤه الندية، كان يتشبث بصحيفة أخبار القبة، لفظ أنفاسه الأخيرة، تناثرت مئات النسخ من الصحيفة، على جانبي الطريق الساحلي، وأخذتها الرياح الماطرة.

يحكى أن

أنا صابر عبدالودود، قدمت الي هذه المدينة الغافية في أحضان البحر، منذ عشر سنوات، كنت أجلس في مكان اسمه المصطبة، في حالة انتظار عمل، أو في انتظار صاحب المنزل، الذي سأقوم بطلائه له، أحس بالغربة والوحدة، يتردد علي شاب ليبي ملابسه رثة، يبدو أنه لا يعمل، يطلب مني سجائر ويمضي.. لا أبخل عليه، أعطيه سيجارة او اثنتين، بدأ يكررها حتى تطورت علاقتي به الي صداقة.

وبعد عام 2011م وذات صباح لم يعد يطل علي كالعادة، بل هاتفني بنقاله وسألني : - انت وين يا صابر ؟

قلت له: عند المصطبة.

رد: :بعد دقائق سوف أكون عندك..

قلت ربما يطلب سجائر كالعادة..

وبعد دقائق توقفت بالقرب مني في سيارة فخمة، هتف سائقها باسمي، أقبلت نحوه وقد أصبت بالدهشة والذهول، وملابسه نظيفة وأنيقة إنه ليس صاحبي ذو الملابس الرثة واللحية الكثة، والذي يتسول السجائر، سبحان الله لقد تغير وضعه، وبادرني قائلا:

- هيا هيا اركب.
- إلي أين ؟
- عندي لك عمل.

قفزت الي جواره في السيارة الفخمة الجديدة، اتجه بنا وسط المدينة، وتوقف عند عمارة شاهقة، قد زرعت حديثا قائلا:

- أريدك أن تقوم بطلاء هذه العمارة.

أخذتني الدهشة والذهول.. الشاب يمزح معي أم ماذا ؟

قلت له :- أصبحت مقاولا أم ماذا ؟

أجاب : - لا هذه عمارتي ولدي واحدة أخرى غيرها.

وكأنني غير مصدق، من أين هبطت عليه هذه الثروة، والملايين بين يوم وليلة ؟.

ملك الوز

في مثل هذا الشهر من خريف كل عام، يأتي إلي هذا الشاطئ، أم القرامي، ويقيم لمدة شهر يرتدي شورتا، وقميصا فضفاضا، وقبعة فوق رأسه على شكل بطة ومن عنقه يتدلى منديل كمنديل الأجداد، ويرتدي في رجليه قنبالي أصفر اللون، وبيده بندقيته بالقرب من اللبيدية الخيمة الصغيرة، ومعه دمي من البط والوز، وصافرة بصوت البط ويختفي قرب البحيرة، كان يرصد بعينيه حركة الشاطئ، تراءى له سرب من الوز، صوب بندقيته في اتجاهه، داس على الزناد، دوت طلقة أعقبتها أخرى، سقطت وزة في مياه الشاطئ، ولاذ بقية السرب بالطيران بعيدا، هرول نحوها، خوض في مياه البحر حتى ركبتيه، ارتعش من البرودة، التقط الوزة وخرج بها، مغتبطا مزهوا، بعد قليل كان يقف عند اللبيدية، وقد وضع

وزته التي أصطادها في الداخل، ما أحلى الوز له طعم خرافي كاليمام البري.

اقتربت منه سيارة طاوية، ترجل منها شاب في العقد الثالث من عمره، بادره بالتحية ثم قال له :

_-- سيدي نود منك أن تعلمني صيد الوز.. خاصة أنك صياد ماهر وسمعت عنك الكثير.

التفت اليه الصياد:

- أعلمك لا مانع لدي لكن عليك أن تغير ملابسك البيضاء هذه..

طلب منه الشاب، أن يعتلي السيارة الي جواره فثمة سرب من الوز هناك،

وهما في الطريق قال له الشاب:

- لكنني أحب يا سيدي أن أبوح لك بسر ..

التفت اليه متسائلا :

- ما هو؟

-أحب أن تسمعه مني أفضل أن تسمعه من غيري.

- ما هو السر؟.

- أسكن في مدينة درنة، وذات مرة كنت أصلي الفجر في المسجد، قبض علي الأمن الداخلي، وزجوا بي السجن لا لشيء، ومن يومها احتفظ لي الأمن الداخلي بملف لي عندهم.

وكلما يحث شيئا في درنة يقبضون علي من جديد، ويضعونني في السجن لأيام ثم يطلقون سراحي وهكذا.

بعد دقائق وصلا المكان، طلب منه الصياد أن يغير ملابسه، ما أن ابتعد عنه خطوات حتى سمعه يخاطب ثلاثة من الصيادين هم عرفوه بادرهم بالتحية سألوه :

- أنت من مدينة درنة؟.

أجابهم :

- نعم

قال له أحدهم :

- لقد شاهدنا رجلا معك..

أجابهم :

- إنه ملك الوز..

قاطعوه :

- ملك الوز نحن نعرفه إنه من طبرق وليس من درنة..

سيرة الكاتب

حسين نصيب المالكي

- قاص ليبي
- من مواليد سنة 1953م
- حاصل على اجازة التدريس الخاصة لغة عربية 1979م، وبكالوريوس علوم عسكرية 1985م.

صدرت له العديد من المجموعات القصصية وهي:

- مقبولة (سنة 1979م)..
- وتجسد الحلم (سنة 1984م)..
- الرجل والنورس (سنة 2010م)..
- الطيار البرونزي (سنة 2018م)..

كما صدرت له دراسات:

1- قراءات في القصة القصيرة (سنة 2005م)..

2- كتاب القصة القصيرة في طبرق دراسات ونصوص (2009 م).

من مخطوطاته

1- من شعراء الشعر الشعبي القدامى

2- وقفات أدبية تعريف بكتاب ليبيين راحلين وأحياء.